لغة المتنبي

للأستاذ عبد القادر المبارك

قال فيها البليغ ما قال ذو العي وكلٌّ بوصفها منطيق
وكذاك العدو لم يعدُ أن قال جميلاً كما يقول الصديق (١)

أبو الطيب المتنبي الذي يمت بنسبه إلى قحطان من العرب العاربة ولد وترعرع في الكوفة مدينة الشعر والعروبة في الإسلام بعد أن مضى على تمصيرها في عهد ثاني الخلفاء الراشدين ثلاثة قرون ظلت فيها مقراً لأقطاب اللسان العربي ورجالات اللغة الفصحى من عرب وأعراب . فلا غرو أن يكون أبو الطيب المتنبي الذي ولد ونشأ فيها معرقاً في عروبته اللسانية إعراقه في عروبته القحطانية . على أن الكوفة التي صارت بعد الإسلام من أعظم الحواضر العربية كانت بقعتها قبل إنشاء المباني فيها بادية مأهولة بعرب الجاهلية وأعرابها من سكان الوبر الذين كانت وفودهم لا تبرح غادية رائحة بين منازل ملوك العرب من اللخميين والمناذرة إذ ليس بين الحيرة عاصمة ملوك العرب في الجاهلية وبين الكوفة سوى ثلاثة أميال .

وفي جوار الكوفة الخورنق الذي ذكرته العرب في أشعارها وضربت به الأمثال في أخبارها كما قال ياقوت ونقل أيضاً عن الهيثم بن عدي (٢) أنه لم يقدم الكوفة أحد من ولاتها إلا وأحدث في قصرها المعروف بالخورنق شيئاً من الأبنية . وقال ياقوت أما ظاهر الكوفة فإنها منازل النعمان بن المنذر والحيرة والنجف والخورنق والسدير والغريّان وما هنالك من المتنزهات والديرة الكثيرة اه فحق لأبي الطيب أن يكون

---

(١) هذان البيتان لابي البيداء اسعد بن عصمة الرياحي (٢) وهو كوفي ايضاً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

من أعرق الشعراء في عروبته ومعرفته بلغة أولئك الذين يقول الأسود بن يعفر فيهم :

أهل الخورنق والسدير وبارق والقصر ذي الشرفات من سنداد

وما من بقعة في الكوفة وما جاورها إلا وهي معهد من معاهد العروبة التي يحن أبو الطيب اليها حنين الأسد إلى عرينه ولبوته ومن أحق من عباقرة الشعراء بحب وطنه ولغته فالله أعلم بما اهتاج في نفس أبي الطيب من طرب حين تغنى بقوله :

تذكرت ما بين العذيب وبارق مجر عوالينا ومجرى السوابق

ولئن كان أبو الطيب قد حيل بينه وبين وطنه فقضى معظم سني حياته بعيداً عنه فإنه ما حيل بينه وبين لغته العربية التي لم ينزع إلى لغة سواها ولم يهو شيئًا هواها تلقنها طفلاً وشعر بها مراهقًا وتضلع منها يافعاً واستحوذ عليها فتى وبذ فحول شعرائها مكتهلاً . ولو أراد أبو الطيب أن يكون كاتبًا لأنسانا الصولي والجاحظ ولو أراد تدوين اللغة العربية على مثال معاجم أئمتها لما سبقه الأزهري في تهذيبه والفارابي في ديوانه والصاحب في محيطه وابن فارس في مجمله وابن دريد في جمهرته وأبو علي الفارسي في تذكرته وغلام ثعلب في يواقيته وابن جني في مقتضبه وخصائصه؛ على أن شاعريته التي أخمل بها فحول الشعراء أفادتنا عشرات الكتب التي ألفها علماء اللغة العربية من كبار أدبائها وسراة نوابغها بسبب ديوان شعره شرحًا وبحثًا ونقداً وسيظل شعره مدعاة لرجال الأدب العربي إلى خدمة هذه اللغة ما دام أهلها غيارى عليها

ولقد كان لأبي الطيب من الشهرة بالنبوغ والعبقرية في حياته ما كان للجاحظ كما يظهر مما ذكره ياقوت في معجم الأدباء من أن الخطيب أبا الوليد بن عسال حج فلما انصرف تطلع إلى لقاء المتنبي واستشرف ورأى أن لقيته فائدة يكتسبها وحلة فخر يحتسبها فصار اليه فوجده في مسجد عمرو بن العاص ففاوضه قليلاً ثم قال ألا تنشدني لمليح الأندلس يعني ابن عبد ربه فأنشده :

يا لؤلؤاً يسبي العقول أنيقا الخ فلما أكمل إنشاده استعادها منه ثم صفق ثم قال يا ابن عبد ربه لقد تأتيك العراق حبواً

وليس غرضي من هذا الشاهد أن أبحث عن كنه ما أظهره المتنبي من استحسان لهذا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الشعر وإنما غرضي أن الاندلسي شق عليه أن يعود إلى الأندلس دون أن يلق عظيم أدباء الشرق .

ومن غرام أبي الطيب باللغة العربية حسن تخريجه لولده محسد الذي أجازهذا البيت

زارنا في الظلام يطلب ستراً فافتضحنا بنوره في الظلام

بقوله :

فالتجأنا إلى حنادس شعر سترتنا عن أعين اللوام

وليس بعجيب على من نشأ تلك النشأة بين عرب الكوفة حضراً وعرب كلب بادية مع ما فطر عليه من لوذعية وشاعرية أن يصبح أستاذاً في اللغة للجاحظ الثاني أبي الفضل ابن العميد الذي قرأ عليه كتاباً في اللغة من تصنيفه وكان يدهش لما يرى من مسابقته لإيراد الشواهد وإفاضته في بيان أسرار القضايا اللغوية .

واستظهاره كتاباً عرض عليه في سوق الوراقين بتصفح يسير وجوابه للفارسي عما جاء على فعلى ولابن خالويه عن أشجى في قوله :

وقاؤكما كالربع أشجاه طاسمه

ولسيف الدولة لما انتقد عليه قوله :

وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم

كل ذلك من دلائل تبريزه في قوة الحافظة وامتلاك زمام اللغة التي ملكته كما ملكها وعنايته بالغوص على المعاني لا يبلغ في التعريف بفضله معشار ما يبلغه فيه شعره الشاعر . فكأن اللغة العربية في شعره غيرها في شعر غيره . والبيان كالجمال في كونه يملك القلوب ولا يحيط بكنه أسراره إلا علام الغيوب . فلا جرم إنه لجدير أن يسمى طوراً شعراً وتارة سحراً ، وتبارك الله أحسن الخالقين الذي خلق الإنسان علمه البيان .

وأبو الطيب إنما كان نسيج وحده ببهاء بيانه وعبقري خياله إذ هو فيهما كالشاعر الذي يقول :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إني وإن كنت صغير السن وكان في العين نبوٌّ عني
فإن شيطاني أمير الجن يذهب بي في الشعر كل فن

وإنك لترحم الشاعر أو الخطيب إذا أطال خوفاً عليه من أن ينبهر أو يصير الى الإسفاف ، أما أبو الطيب فكلما أطال ازداد تحليقاً حتى يجعل مكان الرحمة من سامعه حسداً ، كما يحكى عن زياد بن أبيه وهو في شاعريته الغنية بثروته اللغوية أجدر من أبي العتاهية الذي نشأ في الكوفة بأن يقال فيه : لو أراد أن يجعل كلامه كله شعراً لفعل .

فلسانه كلسان عبد الملك المتكدري الذي قال فيه ابن المعدل : كلما تذكرت أن التراب أكل لسان عبد الملك حقرت الدنيا في عيني ، وكلاهما أقام ردحاً طويلاً في البادية بين بني كلب ؛ وكان عبد الملك اذا حاور الإمام الشافعي ظل من يسمعهما مبهوراً من فصاحتهما لأن الإمام تأدب في البادية بهذيل كما أن ذاك تأدب بخؤولته من بني كلب .

وكان أبو الطيب طبأ بوضع الكلم في مواضعه أكثر مما كان عنترة الفلحاء طبأ بأخذ الفارس المستلئم ، فهو كما قال امرؤ القيس :

يذود القوافي عنه ذيادا ذياد غلامٍ غويّ جرادا

ومن مزاياه العربية غيرته على شعره أن ينتجع به من لا يفقه أسرار اللغة ، وكانت هذه المزية من أشد البواعث على رغبته في إيثار سيف الدولة الذي كان يود أن لا يفارقه حتى يفارق دنياه .

ولولا ذلك لانتجع من نبغ في زمن خلافتهم من ملوك بني العباس وهم : المقتدر ، القاهر ، الراضي ، المتقي ، المستكفي ، المطيع ؛ لكنه رأى السلطة في بلاطهم ، بله مملكتهم لطماطم الموالي وأقزام المماليك ، فكانت بغداد عنده كشعب بوّانٍ في طمطمانية المتحكمين فيها :

ملاعب جنة لو سار فيها سليمان لسار بترجمان

وكل ما قاله في مدح غير سيف الدولة ليس إلا إغراء له بطلبه ومعاتبة له ، وهل يستطيع من وُلد وترعرع في مدينة المنبر العلوي منجبة الألوف من فحول البلغاء ، وهو

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

بارٌ بلغته إلا أن يكون كأبي الطيب اعتزازاً بعربيته وإعزازاً لها ، وإشفاقاً عليها من آفات اللحن ، إشفاق ذلك الأعرابي الذي سمع أحد الخلفاء من العباسيين يلحن فصرَّ أذنيه وقال : أشهد أنك ما وليت الخلافة إلا بقضاء وقدر .

وإليك مثالاً من فقه اللغة في الكوفة من محاورة بين كوفيٍّ واثنين من الأعراب في القرن السادس للهجرة ، بينما كان الكوفي عمر بن ابراهيم العلوي يغرس فسيلاً في حائط له إذ مرَّ به أعرابيان فقال أحدهما للآخر : أيطمع هذا الشيخ القحل أن يأكل من جني هذا الفسيل ، فسمعه الشيخ وقال : يا بني كم من كبش في المرعى وكم من خروف في التنور ، فسمع أحدهما دون الآخر الذي سأل رفيقه عما يقول العلوي ، فقال له إنه يقول : كم من ناب تسق في جلد حوار ، فعلم الأعرابي ما قال وأعجبه ذلك .

هذا بعد عصر المعري الذي استنبط فيه العرب ، فما بالك بالعصور الأول في عكاظ الإسلام مربد البصرة وظاهر خدّ العذراء التي كانت من أكبر مدن العرب العرباء وفي مدرسة أبناء أشرافها أو كتابهم تلقى المتنبي دروسه الأولى باللسان العربي المبين الذي جرى على لسانه الطليق الذليق شعراً مبشراً بعبقريته وهو ابن عشر سنين .

وبعد فإني أقول في لغة أبي الطيب ما قاله يونس بن حبيب في ابن العلاء البصري : لو كان أحد ينبغي أن يؤخذ بقوله في كل شيء لكان ينبغي أن يؤخذ بقول أبي عمرو ابن العلاء كله في العربية ، ولكن ما من أحد إلا وأنت آخذ من قوله وتارك إلا أفصح من نطق بالضاد نبينا محمداً عليه الصلاة والسلام .

وحبّ المتنبي اللغة العربية حدا به الى الإمعان في تعرف أسرارها والحرص على تصفح خيرة معاجمها الكثيرة التي أولها العين للفراهيدي ، وآخرها المحيط للصاحب ، والصحاح للجوهري ، وكتاب العالم واللغة المفتتح بالفلك والمختتم بالذرة لأحمد بن أبان الأندلسي المتوفى سنة (٣٨٢) وهو مائة مجلد ، ولقد بلغت كتب اللغة في القرن الرابع للهجرة من الوفارة والكثرة ما يكفي في الدلالة عليه قول الصاحب ابن عباد كما في المزهر : أحتاج الى ستين جملاً أنقل عليها كتب اللغة التي عندي . فهل يصح بعد هذا أن يقال : كل ما في كلام المتنبي من الغريب المصنف سوى حرف واحد هو

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net
الجمهورية العربية السورية مجمع اللغة العربية

في كتاب الجمهرة وهو قوله : تطوى المجلحة العقد كما يدعي صاحب كتاب إيضاح مشكل شعر المتنبي ، على ما نقل صاحب الخزانة الكبرى ، وأنى يمكن الوقوف على سند صحيح يثبت أن أبا الطيب لم يطلع على كلمة المجلحة أو العقد إلا في كتاب الجمهرة لابن دريد المتوفى سنة (٣٢١) ، وأبو الطيب طالما أحيا الليالي درساً حين لم يكن له سوى الكتاب سميراً رجاء أن يقف من طريق الصناعة على محاسن لغة أتقنها من طريق الطبيعة في مدرستها العالمية حضارةً وبداوة .

ومثله يترفع أن يقول : إنني أطالع كتاب فلان وأدرس ديوان كذا ، وكلمة مجلحة جاءت في شعر بشر بن أبي حازم وفي شعر لبيد وفي شعر امرئ القيس وفي شعر بنت وثيمة في رثائها لأبيها كما في بيان الجاحظ في الباب الذي أوله (وكانوا يمدحون شدة العارضة) . وكلمة العقد التي هي جمع الأعقد لها شواهد أوفر وأكثر من شواهد المجلحة ، والأليق بالصواب والأقرب الى المعقول في مثل المجلحة أن يقال استفادها من لغة الأعراب الذين كان يرحل برحيلهم وينزل بنزولهم من أهل البوادي . والتجليح لفظاً ومعنىً بابن الوبر أليق وأعلق منه بابن المدر وقلما تراه في كلام أهل الحضر ، ومعناه الذي هو أن يركب المرء رأسه ويحمل حملة الحيوان الضاري قلما يستغني عنه سكان الصحاري .

وكأن صاحب كتاب إيضاح المشكل أراد الغض من أبي الطيب الذي قُدِّر عليه ان يكون محسداً كما قدر عليه أن يكون أبا محسد بكونه قليل الاطلاع على كتب اللغة وأنه لم يطلع إلا على غريب أبي عبيد وعلى أقل من القليل من جمهرة ابن دريد والمتنبي يقول له بلسان الحال : حرف في قلبك خير من ألف في كتبك ، ورحم الله أبا ذؤيب إذ يقول :

وعيرها الواشون أني أحبها وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

والمجلحة في كلام المتنبي جاءت في القصيدة التي مطلعها :

« أقل فعالي بلهَ أكثره مَجدُ »

في هذا البيت :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

وأمضي كما يمضي السنان لطيتي وأطوي كما تطوي المجلحة العُقد

وجاءت في التي مطلعها :

«أبدرى ما أرابك من يريب»

إذ يقول :

مجلحة لها أرض الأعادي وللسمر المناحرُ والجُنوب

وكان الأولى بالأصبهاني اذا ادعى معرفة مصادر غريب اللغة في شعر المتنبي أن يقول : إنما أخذ المجلحة من بائية امرئ القيس التي أولها :

أرانا موضعين لأمر غيب ونسحر بالطعام وبالشراب

عصافير وذبان ودود وأجرأ من مجلحة الذئاب

لأن أبا الطيب فحل شعراء العراق من سلائل عرب اليمن حقيق أن يحفظ شعر امرئ القيس فحل شعراء نجد من أبناء ملوك كندة من اليمن لا سيما الشعر الذي قيل بسبب معركة حمي الوطيس فيها قرب الكوفة وكان يومها عصيباً من أشد أيام العرب هولاً ، وهو يوم الكلاب الذي عم امرئ القيس شرحبيل من قتلاه . ومثل أبي محسد من يعنى بدراسة أخبار العرب لا سيما أيامها ، على ان ذلك كله تحكم ليس له مبرر ، ومن يستطيع ان يحكم عليه انه لم يسمعها ويحفظها في منزل أسرته في كندة بين احياء الكوفة في مدرسة الحياة الأولى التي يكون التعلم فيها بالفطرة ، ولكن يا ابا الطيب :

بحسبك اني لا ارى لك عائباً سوى حاسد والحاسدون كثير

كما قيل في شأن معاصرك المفضال علي بن عيسى بن داود بن الجراح ، وليس هذا التحكم عليك في دعوى انك لم تعرف كلمة المجلحة إلا من الجمهرة بأغرب من تحكم من ادعى انك سرقت قولك :

ومن جهلت نفسه قدره رأى غيره منه ما لا يرى

من قصة قصار كان يعمل على شاطئ نهر ، وكان كل يوم يرى كركيًا يجيء فيلتقط من الحمأة دوداً يقتصر في القوت عليه ، حتى راى ذات يوم صقراً حلق ثم انقض على حمامة فاصطادها واكلها . فقال الكركي ما لي لا اصطاد الطيور كما يصطاد هـذا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الصقر وانا اكبر منه جسماً ، فارتفع في الجو وانقض على حمامة فأخطأها وسقط في الحمأة فتلطخ رأسه وريشه ولم يمكنه ان يطير ، فأخذه الصياد ورجع الى منزله ، فقيل له ما هذا : فقال « كركي بتصقر » ، فسمع المتنبي هذه الحكاية ، فأخذ منها معنى هذا البيت :

ومن جهلت نفسه قدره رأى غيره منه ما لا يرى

قال ابن نباتة شارح رسالة ابن زيدون بعد هذه الحكاية : وهذا من نادر التعصب على هذا الرجل الفاضل المحسود .

عبد القادر المبارك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net